العدد 3595 - السنة الثانية عشرة
الأربعاء 18 جمادى الآخرة 1441 - الموافق 12 فبراير 2020
Wednesday 12 February 2020 - No.3595 - 12 th Year

ماذا أفعل .. ابني يعاني خللا في النمو النفسي الجنسي ؟!

- أسباب كثيرة ومختلفة أدت إلى ظهور المثليين بعدما كانوا يميلون للتخفي
- من أكثر الخرافات انتشاراً في سبب المثلية الجنسية تأثير العامل الجيني الوراثي
- تعرض الطفل لاعتداء جسدي بسبب شرخاً في نفسيته مدى الحياة ما لم يتم التعامل معه بطريقة فعالة
- الأدلة العلمية تشير بقوة إلى إمكانية تصحيح مسار النمو الجنسي وتصحيح الميول من جديد

مع مولد طفل جديد في الأسرة تبدأ الأحلام تراود الوالدين في النهار والليل، ويبدؤون في صياغة الخطط لمستقبله في الدراسة والعمل واختيار الزوجة والأولاد، ويفكر بعض الآباء كيف سيكون الابن سنداً لهم في يوم ضعفهم، ويميل الآباء إلى تحديد مسار الأبناء بأنهم امتداد لهم في النجاحات عامة، وفي العلاقات الإجتماعية والأسرية، ويبدأ بترتيب دوره الاجتماعي. وتبدأ المشكلة عند الانتباه لوجود خلل في ميول الولد الجنسية، ربما يصرح الطفل في سنواته الأولى عن رغبته في كونه من الجنس الآخر، وربما فضل ممارسة الدور الاجتماعي للجنس الآخر؛ فيفضل في عمر مبكر جداً قد تكون في السنوات الخمس الأولى بتفضيل لبس البنات، أو اختيار ملابس تقترب بدرجة أو أخرى من ملابس البنات لونا أو شكلا، بل حتى في الاجتماعات الأسرية أو في أماكن العاب الأطفال أو في الحضانة والروضة يفضل البقاء في مجموعة الفتيات عن مشاركة الأولاد واللعب معهم. ويستمر الخلل في النمو النفسي الجنسي الذي يبدأ منذ تكون الجنين في رحم الأم وبعدها من خلال التفاعل بين مجموعة من العوامل في حياة الطفل تقوم على تحديد ميوله الجنسية في مسارها الصحيح، أو تنحرف الميول عن السواء إلى اتجاهات أخرى.

وقد يتبادر إلى ذهن البعض أننا نتناول أمراً بعيداً عنا، أمراً نادراً وغير شائع في مجتمعاتنا، إلا أنها سلوك إنساني تظهر حيث يوجد الإنسان، ولعل البعض يظن أنها تزداد وتنتشر في هذه الأيام، ولعل الأمر له حقيقة أخرى، فالأبحاث العلمية لا تشير لازدياد غير طبيعي للظاهرة، وإنما سهولة النشر المعلوماتي في القنوات الفضائية، ومواقع التواصل الإجتماعي، والاستغلال السياسي لمجتمع المثليين في الانتخابات، وغيرها كثير من الأسباب التي أدت إلى ظهور المثليين بعدما كانوا يميلون للتخفي وعدم إظهار ما هم عليه من مخالفة لغالب المجتمع، ولعل هذا الكلام ينطبق على العالم الغربي بشكل أساسي، وله صورة منعكسة في عالمنا العربي.

الخيال الجنسي

في مرحلة لا تظهر الخيالات الجنسية في ذهن الطفل بصورة واضحة، وإنما يكون التفاعل بين الشخص ونوعه الجنسي من خلال الأدوار الاجتماعية التي يمارسها الولد في المجتمع من خلال اختيار نمط التفاعل اليومي في طريقة اللباس واللعب وتكوين الصداقات مع أطفال من جنسه والتمايز عن الجنس الآخر والابتعاد عنهم، ومع مرور الأيام يصبح لدى الطفل مشاعر رومانسية نحو الجنس الآخر، ويميل لتكوين صداقات مميزة لها طابع خاص في خيال الطفل نحو الجنس الآخر، وعندما تبدأ الغدد الجنسية عملها في الجسم لتجهيز الجسم لمرحلة البلوغ والعمل الجنسي تتكون الخيالات الجنسية بصورة تابعة للظروف التي نشأ عليها الطفل. ففي حالة النمو الجنسي السليم يتكون ميل الطفل للتفكير الجنسي مع الجنس الآخر، وعندما تتم إعاقة النمو الجنسي في مراحل الحياة الأولى، وحرف مساره عن الاتجاه الطبيعي يفشل الطفل في تجاوز جنسه الذي ولد عليه، وتنشأ خيالاته لممارسة الجنس مع أفراد آخرين من ذات الجنس.

هل الجينات والهرمونات مسئولة عن المثلية الجنسية؟

لعل من أكثر الخرافات انتشاراً في سبب المثلية الجنسية تأثير العامل الجيني الوراثي، وبالتالي لا يمكن لوم أحد على اختيار ميوله الجنسية، وكانت عبارتهم الشهيرة التي تتردد في كلامهم أني لم أختر ميولي، فكما خلقك الله ذكرا وخلق فلانة أنثى خلقني أنا مثليا؟ ولهذا يشير شعار المثلية الجنسية لألوان شبيهة بالقوس قزح للإشارة إلى التنوع الجنسي في المجتمع!

وأكدت دراسة علمية شاملة عن الأساس البيولوجي للسلوك الجنسي أنه لا يوجد «جين بعينه للمثلية الجنسية»، لكن مزيجاً معقداً من العوامل الوراثية والبيئية تؤثر على ميل شخص لشركاء من نفس الجنس. وخلص البحث، الذي حلل بيانات للحمض النووي والممارسات الجنسية لنحو نصف مليون شخص، إلى أن هناك الآلاف من المتغيرات الجينية مرتبطة بسلوك المثلية أظهرها له تأثيرات محدودة للغاية. وقال الباحثون إن خمساً من العلامات الجينية مرتبطة بشكل كبير بسلوك المثلية، لكن يصعب الاستعانة بها في التنبؤ بالميول الجنسية. ويقول الباحث الرئيسي في الدراسة: من المهم أن نتذكر أن تلك المتغيرات الوراثية وحدها لا يُمكن أن تحدد السلوك الجنسي لشخص ما. إذ إنها تعبر فقط عن موروثة في الطبيعة تم تشكيلها من خلال مئات أو آلاف التفاعلات بين المتغيرات الوراثية، ويُمكن أن تتشكل أصلا بواسطة بيئة الشخص أو تجاربه في الحياة، لذا يُمكن أن نقول بثقة إنه لا يوجد محدد وراثي وحيد للسلوك الجنسي المثلي، وإنه بقدر ما تتأثر الحياة الجنسية بالوراثة، فإنه من المرجح أن تُشارك مئات المتغيرات الوراثية أو الآلاف منها معاً، جنباً إلى جنب مع البيئة والخبرات، لتُشكل مُحدداً للسلوك الجنسي المثلي، وأضاف أن لهذه النقاط تأثيراً ضئيلاً للغاية وأنها تفسر مجتمعة ما هو أقل بكثير من واحد في المائة في فروق سلوك المثلية الجنسية.

ولعل بطريقة أكثر وضوحاً نجد أنه لا تأثير لهرمونات الأنوثة الذكورة والأنوثة في تحديد الميول الجنسية، ولعل أقصى ما يمكن أن يسببه ازدياد هرمونات الأنوثة لدى الذكر أنها تغير بعضاً من شكل الجسد، ونمو الشعر والصوت، ولكنها لا تؤثر في تحديد الميول الجنسية.

لماذا يصبح هناك مثليون جنسيا؟

بالرغم من وجود نظريات كثيرة تحاول تفسير وجود السلوك المثلي لدى البشر إلا أنها بمجموعها تشير إلى حالة من عدم الاتساق نشأ بسبب ظروف طارئة في بيئة الشخص، ولذا قيل: «لا يولد الإنسان مثلياً، ولا يختار أن يكون مثليا، ولا يريد أن يكون مثلياً». وكان هذا النفي الثلاثي معضلة غير مفهومة، ولكنها تشير إلى واقع المثليين الذين حركتهم مجموعة من العوامل البيئية، ولذلك من أقوى الفرضيات تلك التي تبين أنها تفاعل بين طبيعة الطفل نفسه ومدى حساسيته، وبعد الابن عن الوالد سواء كان البعد بسبب وفاة أو طلاق أو بعد في ممارسة الأب للوالدية السليمة في التواصل مع الابن، وتعرض الطفل لاعتداء جنسي يعمل شرخاً في نفسيته مدى الحياة ما لم يتم التعامل معه بطريقة فعالة، وبالتالي فليس كل من كان ذو شخصية حساسة قابلة يصبح مثليا، ولا كل من فقد والده لأي سبب وبأي صورة يكون مثلياً، وكذلك ليس كل من تعرض للاعتداء اصبح مثلي الجنس، وإنما هي في تفاعل هذه الثلاث عوامل مع بعضها لتشكل خطراً في ميله نحو السلوك المنحرف.

هل المثليون مرضى أم خاطئون؟!

بالرغم من اتفاق الأديان على تجريم الممارسة الجنسية المثلية إلا أننا في إطار الفهم العميق للظاهرة يمكننا التفريق بين السلوك الجنسي المثلي من جهة، ومن جهة أخرى هناك من يمتلك ميولاً مثلية لكنه يرفض الممارسة الفعلية للمثلية، فجميع العوامل التي تؤدي للمثلية يتوقف دورها للميول، ويبقى الفرد مسؤولا عن أفعاله مهما كانت ميوله واتجاهاته. وكذلك يمكننا فهم موضوعية المرض النفسي في التفريق بين الخلاف بين الاضطراب النفسي والسواء أن الاضطراب النفسي عبارة عن نمط سائد من مخالفة غالب المجتمع، فجميع الناس يتعرضون لخبرة الحزن ولكن لا يمكننا تشخيصهم جميعاً بالاكتئاب، وجميع الناس ينتابهم الخوف في موقف أو عند التعرض لوضع جديد في الحياة، ولا نستطيع تشخيصهم باضطراب القلق، وأقصد هنا أن زيادة سمة طبيعية عند عموم الناس يجعلها اضطراباً، ولا نقصد فقدانه للأهلية والإرادة وبالتالي يعفى من مسؤوليته الاجتماعية والقانونية والدينية، وكذا القول في المثلية من جهة كونها مرضا لأنها تخالف السلوك الجنسي العام لدى غالب البشر، وبالتالي فوصف السلوك المثلي بأنه مرض فيه إدانة له لا تبريراً أو دفاعاً عن سلوكاتهم.

هل يوجد علاج للمثلية الجنسية؟

السلوك البشري المكتسب يمكن تعديله، وهذا هو الدور الذي يقوم به العلاج النفسي، وبالرغم من كمية الضغط الإعلامي الذي يغلق الباب أمام المثليين جنسيا ويمنعهم من تصويب حياتهم للسواء بطرق شتى إلا أن الأدلة العلمية تشير بقوة إلى إمكانية تصحيح مسار النمو الجنسي وتصحيح الميول من جديد، ويمكنني القول بصراحة أن العلاج ليس بهذه السهولة؛ بل ربما يأخذ وقتاً طويلاً مقارنة مع بقية الاضطرابات الجنسية، ولكنه ليس الاضطراب الوحيد الذي يحتاج وقتاً طويلاً وجهداً عالياً من المعالج والمريض نفسه، وربما الخطوة الأولى تبدأ بقرار الالتزام بالطريق الصحيح ثم بعدها بدء الرحلة، لأن التجريب العشوائي الذي يمارسه المثليون قبل العلاج المهني للمشكلة لا يعد علاجاً، مع كونهم في العيادة يخبروننا أنهم من فترة طويلة يحاولون كف رغبتهم الجنسية! وبعد ذلك لا يمكن تحقيق نتيجة دون إيقاف أساليب الإثارة الجنسية من خلال الأفلام الجنسية بكلا نوعيها المثلي والغيري، والعلاقات الجنسية الواقعية، وبعد ذلك يتم ترميم العلاقات بنفس الجنس، فيبدأ تدريب المثلي على تكوين علاقات صداقة حميمة خالية من الجنس، ليبدأ بالشعور بالحب والتقدير دون احتمال طلب مقابل جنسي منه، وعلاج صدمات الماضي والتفريغ الإنفعالي المؤلم الذي تلبسه خلال حياته الماضية، وبعد ذلك يتم تدريبه على تكوين نظرة إيجابية للجنس الآخر سواء علاقة صداقة أو حب، مع الالتزام بعدم تجريب أي علاقة جنسية قبل التعافي التام من المثلية الجنسية، وفي خلال هذه الرحلة يتم علاج الاضطرابات المصاحبة لمشكلة المثلية الجنسية وأهما تقدير الذات والاكتئاب والقلق، ولو كان هناك اعتماد على مواد إدمانية، فتلك المواد تجعل حياتك أسوأ وتزيد صعوبتها.

لست مثلهم!

بصوت تجتمع فيه بحة البكاء والشعور بالضعف والدونية يكرر بصوت مختنق: أنا لست مثلهم يا دكتور، فأنا مختلف! يكمل حديثه بقوله: حاولت بكل الطرق، فعلت كل ما يفعله الشباب، لم ادخل علاقة حميمة مع رجل مثلي لتر لأني لا أريد أن أكون كذلك، تمنيت لو كنت شاباً طبيعياً لديه ميلوه نحو البنات، فكل أصدقائي في الجامعة يفكرون في التعرف على البنات، والزواج بعد التخرج.. تمنيت الموت مراراً لأني لا أستطيع أن أكون ولداً كبقية الأولاد، ولست بنتاً كبقية البنات، أنا مسخ يا دكتور.. منذ طفولتي لم أكن مثل بقية إخوتي.. صمت لحظة ثم قال لي: لماذا اختارني أنا من بين بقية الأطفال وتحرش بي؟!

تم يخبرني عن تجربة تعرض لها في طفولته، عندما تحايل عليه شخص كبير من خارج العائلة لكنه يحتك معه بشكل يومي حتى تمكن من تكوين ألفة بينه وبينه الطفل، وعندما كان في خلوة معه اجلسه في حضنه وأدخل يده داخل الملابس ثم قال له: انظر لقد شعرت بالسعادة؛ لأنك لست رجلا، ومنذ ذلك اليوم بدأت هذه الكلمة تتردد في ذهنه ولم تغادره، ويبقى السؤال مردداً في أذهان المثليين الذين تعرضوا لاعتداء جنسي أو تحرش: لماذا شعرت ببعض السعادة؟! وهذا تحديداً ما أوضحناه خلال حديثنا عن الأسباب التي تحدث تغييراً في الميل الجنسي.